مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

خطاب الطعام في العصر العباسي – الشعر اختياراً

م. صفاء علي أحمد [1]

[1] المديرية العامة لتربية النجف الأشرف- العراق

safaa.ali.ahmed.1980@gmail.com

الملخص. شهد العصر العباسي تطورًا ثقافيًا وفكريًا فريدًا، وكان من أبرز سماته تنوّع الخطابات وتفرّعها، ومن بين هذه الخطابات يبرز "خطاب الطعام" بوصفه تمثيلًا عميقًا لأبعاد ثقافية واجتماعية وفكرية متشابكة. فليس الطعام في الشعر مجرد مفردة حسّية أو حاجة بيولوجية، بل هو كناية ورمز، وتجلٍّ حضاريّ، ونافذة لقراءة الذوق والسلطة والهوية والجمال. ومن هنا، فإن تحليل خطاب الطعام في الشعر العباسي يكشف عن طبقات دلالية معقدة، تتجاوز وظيفة التذوّق لتصل إلى مستويات رمزية وجمالية وفكرية متعددة. إن اختيار الشعر ميدانًا لتحليل هذا الخطاب يعود إلى كونه أوسع تجليًا في هذا العصر، فقد عبّر الشعراء عن عوالمهم عبر لغة الطعام: وصفًا، وتشهّيًا، وسخرية، ومدحًا، وهجاء، وأحيانًا بوصفه أداة مقاومة أو ترميزًا لسلطة ما. وتغدو مائدة الطعام في هذا السياق فضاءً للتفاخر أو التهكم، وللكشف عن التفاوت الطبقي أو مظاهر الترف، أو حتى لتكثيف صورة الذات الشاعرة عبر استعارات الطعام. كما اعتمد هذا البحث المنهج الثقافي التحليلي الذي يتخذ من النص الشعري منطلقاً للكشف عن انساق الخطاب الكامنة في تمثلات الطعام في الشعر العباسي. فالمنهج الثقافي يتجاوز القراءة الجمالية للنص إلى قراءة تكشف علاقته بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اسهمت في تشكيل دلالاته. ومن خلال هذا المنهج، سعى البحث إلى استجلاء الكيفية التي تجلى بها الطعام بعده رمزاً ثقافياً يعبر عن الثراء والترف من جهة، وعن الفقر والحرمان من جهة اخرى، وذلك عبر تحليل النصوص الشعرية في ضوء سياقاتها التاريخية والاجتماعية. وقد استند التحليل إلى أدوات النقد الثقافي التي

Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256
مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ

تعنى بتفكيك الانساق المضمرة، ورصد العلاقات بين الخطاب الشعري ومنظومة القيم التي أفرزته، بغية الكشف عن جدلية الترف والحرمان في الوعي العباسي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الطعام، الشعر، المائدة، الطبقة، الترف، الفقر، البؤس.

Abstract. The Abbasid era witnessed a unique cultural and intellectual development, one of its most prominent features being the diversity and diversity of discourses. Among these discourses, the "discourse of food" stands out as a profound representation of intertwined cultural, social, and intellectual dimensions. Food in poetry is not merely a sensory term or a biological need; rather, it is a metaphor and symbol, a cultural manifestation, and a window into the interpretation of taste, power, identity, and beauty. Hence, an analysis of the discourse of food in Abbasid poetry reveals complex semantic layers that transcend the function of taste to reach multiple symbolic, aesthetic, and intellectual levels. The choice of poetry as a field for analyzing this discourse stems from its broader manifestation in this era. Poets expressed their worlds through the language of food: description, appetization, sarcasm, praise, satire, and sometimes as a tool of resistance or a symbol of authority. In this context, the dining table becomes a space for boasting or mockery, for revealing class disparities or manifestations of luxury, or even for intensifying the image of the poetic self through food metaphors.

Keywords: discourse, food, poetry, table, class, luxury, poverty, misery.

مفهوم خطاب الطعام وسياقاته في الثقافة العباسية:

الثقافة بعدّها نسقًا معقدًا من الرموز والممارسات والتمثّلات، تمثل الإطارَ الذي يَنتج فيه الطعام معانيه، ولا يُستثنى من ذلك الشعر ، فهو ((من أكثر مظاهر الثقافة العربية شفافيةً وعمقاً، وأعظمها دلالة ونضوجاً بالرمز والمعاني والقيم، لاكتنازه عناصر الفن والجمال، وتحولات التاريخ والثقافة والمجتمع)) (العوادي، 405: 2024)، إذ شهد تطورًا هائلًا في الرؤية الفنية والتعبيرية، فضلاً عن أنَّ الطعامَ موضوعٌ شعريٌّ وممارسة ثقافية شُكلت عبرها أنظمة الخطاب، فالعرب ((أوصف الناس للطعام،

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

وألطفهم في ذكره)) (الدنيوري، 77: 1998)، ولم يقتصروا على وصف المادة الغذائية، بل انتقلوا إلى أبعد من ذلك، لنجد منظومة من الدلالات التي تنتمي إلى حقل الثقافة الرمزي والمادي.

إن مصطلح خطاب الطعام يشير إلى تمثيل الطعام في النصوص الشعرية بعدّه خطاباً مركزياً ، ولغةً محمّلةً بالمعاني، لا مجرد حاجة غريزية أو عنصراً بيولوجيًا (العوادي، 393: 2024). فهو يتحول في الخطاب إلى رمزٍ للترفِ أو الفقرِ، للسلطة أو التهميش، للهويةِ أو التغريب، بل إنَّه في بعض الأحايين يمثل فاعليةً رمزيةً في نسج العلاقات بين الذوات داخل النصّ الشعري. وقد بيّن (بيار بور ديو) أنَّ الذوق – بما فيه الذوق الغذائي– هو ساحة صراع طبقي، يُعبَّر فيه عن الامتيازات الاجتماعية من خلال تفضيلات الطعام وأساليب استهلاكه (بورديو، 88: 2007)

وفي الثقافة العربية الإسلامية، كان الطعام حقلًا دلاليًا ثريًا، اتصل بالمجال الفقهي، والصوفي، والسياسي، والأسطوري، ناهيك عن موقعه في الأدب. فقد تشكّل الطعام داخل هذه المنظومة بعده صورةً عن العالم، حيث المائدة تُعبّر عن الكرم أو التبذير، والصوم عن الزهد أو النفاق، والشراب عن النشوة أو الفجور. وهذا ما أشار إليه علي القاسمي في قوله: ((إن الطعام في التراث العربي الإسلامي لم يكن يومًا شيئًا محايدًا، بل كان دائمًا محمّلًا برسائل أخلاقية أو رمزية أو سلطوية)) (القاسمي، 31: 2011)، فقد تبلورت هذه الرؤية بشكل واضح في العصر العباسي مع اتساع دائرة الترف، وتنامي الدولة المركزية، وظهور طبقة الأرستقراطية الجديدة، مما جعل مائدة الطعام ميدانًا للتفاخر والتمييز الطبقي. وأدى هذا إلى ظهور صور شعرية جديدة، كانت تصف المآكل والمشارب بتفصيل دقيق، وتُحيل على مشاهد من الترف والنعيم، أو على النقيض منها من الجوع والقهر.

ولعلّ اللافت في هذا السياق أنَّ بعض الشعراء لم يتعاملوا مع الطعام مجرد موضوعٍ لوصفٍ حسي، بل وظفوه بوصفه أداةً للتهكم أو السخرية، أو وسيلة لانتقاد الواقع السياسي والاجتماعي. فهو متعدد الوظائف في النصوص الشعرية، فلا يخلو من نبرة نقدية تهكّمية ضد القيود الاجتماعية، كما أنَّ الخمر والطعام يشكلان في بعض النصوص أدوات لتحرير الجسد وتفكيك السلطة الرمزية (مزين، 74: 2019) وبذلك، يغدو خطاب الطعام انعكاسًا لتوترات العصر وتحولاته، ويُقرأ في ضوء جدلية المادة والرمز، الغريزة والثقافة، الفرد والمجتمع.

1 .المبحث الأول: تجليات خطاب الطعام في الشعر العباسي:

لقد تجلّى خطاب الطعام في الشعر العباسي كأداة للتعبير عن المتعة والترف، ووسيلةً لنقد المجتمع أو تصوير التحولات الثقافية. لأنَّ للطعام والكلام / الشعر أواصر ووشائج علائقية، فضلاً عن المكونات

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

المعرفية المتوثقة ما يجعلها تتجاوز الصوت إلى المعنى اللغوي والدلالة الحضارية (العوادي،14: 2023). بوصف الشعر مرآة ثقافية تعكس البنية الاحتماعية والاقتصادية والسياسية للعصر، فهو يحمل خطاباً يكشف التفاوت الطبقي، وصراع القيم بين الترف والحرمان، والوفرة والندرة، والسلطة والهامش. فجاء هذا المبحث لتحليل تلك التجليات الكامنة في خطاب الطعام في الشعر العباسي. ولتحقيق هذا الهدف اعتمد المنهج الثقافي التحليلي الذي يدرس النصوص الشعرية في سياقاتها الثقافية، للكشف عن الانساق الفكرية والقيمية المتموضعة خلف الصور الشعرية المتصلة بالطعام، فضلاً عن استجلاء ما تعبّر عنه من رؤى المجتمع العباسي تجاه الثروة والجوع، والكرم والبخل، والترف والزهد.

فالقراءة الثقافية المتأنية المنفتحة على مقاربات نسقية / سياقية للنصوص الشعرية، تُفصح عن أنَّ الشعراء لم يكتفوا بوصف المأكولات، بل بنوا جسوراً محملة بالتعبيرات المجازية / الرمزية وربطها بأنماطِ الحياةِ الاجتماعية والقيم السائدة، ليصبح الطعام حاملاً ومعبراً يعكس الصورةً الدقيقةً عن طبقاتِ المجتمعِ وتغير الذوق والموقف من الحياة. لأنَّه ((ليس مادة قصارها أنْ تهضم، ولكنَّها مادة تسّعى إلى أنْ تتكلم، كما لا ينحصر دورها في بناء الذات، وإنَّما يمتد إلى بناء الحياة)) (العوادي، 278: 2023)، وهذا ما نلمسه في نصّ أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداءُ (الحديثي،53: 2010)

يشي النص عن المتعة الحسية والهروب من الواقع، إذ يلجأ الشاعر إلى احضار الطعام والشراب بعدّهما ركيزة للحياة التي ينشدها في ذاته، فيحول الطعام – المائدة– إلى رمزٍ للتمرّد على ما هو سائد من أعرافٍ وتقاليد دينية كانت أم اجتماعية، فضلاً عن الحرية.

كما نلمس في سياقات أخر لخطاب الطعام انعكاسات لقيمٍ طبقية اجتماعية، فضلاً عن حمولات دلالية رمزية تفصح عن التمايز، إذ يتجلى ذلك في قول أبو الشمقمق:

ما كنت أحسب أنَّ الخبز فاكهةُ حتى نزلت على أرضُ ابن منصور

..

يبس اليدين فما يستطيع بسطهما كأنَ كفَّيه شدا بالمسامير (الصمد،45: 1995)

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

لعل عبء التمايز يطفو من النصّ، فسلم القيم فيه يشي بانقلاب ثقافي للرغيف الذي لم يعد قوام للعيش اليومي كأدنى مراتب للطعام وإنما اتسم بصفة الندرة وينظر إليه كـ(فاكهة)، إذ أن قيمته ارتقت لكي تكون حلما لدى الفقراء، على الرغم من أنه أبسط مظاهر العيش إلا أنّه اصبح حكراً على طبقة دون طبقة أخرى، لا يمكن أنْ يطاله إلا عليّة القوم. لأنّ تكثيف المشهد الغذائي ينقلنا إلى حقيقية التمايز الطبقي المتجذر في العقلية العباسية لاسيما "السلطة" .

إنَّ ذلك التمايز الطبقي أنتج لنا "المعايرة بالطعام"(العوادي،15: 2023) كوسيلة هجومية تقلل من شأن الآخرين بالسخرية، أو النيل من طباعهم، أو تصوير بخلهم، أو إلقاء الضوء وتسليطه عل فقرهم، فضلاً عن ضعفهم وعجزهم عن توفير ما يأكلونه من طعامٍ، فيوظف الطعام كسلاح رمزي ووسيط نقديّ واجتماعيّ يشهره الشاعر في وجوه الخصوم ليبرز الفارق الطبقي والاجتماعي، فضلاً عن اطعامهم مرارة العوز والجوع. ويتبدى ذلك في قول أبي نواس:

خبز الخصيب مُعلَّقٌ بالكوكب يحمى بكلِّ مُثقَّفٍ ومشطَّبِ
جعل الطعام على بنيه محرماً قوتاً وحلَّله لمن لم يَسغبِ
فإذا هُمُ رأوا الرغف تطرَّبوا طرَبَ الصيامِ إلى أذان المغربِ (الحديثي،392:2010)

لعلَّ المعايرة في هذا النصّ الشعري تعكس صورة هجائية لاذعة لم تكن شخصية في ذاتها، وإنَّما اشارة طبقية فاضحة للفقر الاجتماعي والفارق الطبقي تحت عباءة المائدة، التي اصبحت في هذا العصر–العباسي– مرآة كاشفة لما هو سائد، فتصويره لأبسط أنواع الطعام (الرغيف) وكأنَّه نجمٌ من النجوم البعيدة واللامعة في السماء، يدل على سخريته من واقع يندر فيه الأساس المعيشي لدى الفقراء بينما نجده متحولا إلى ترف عند الاغنياء الذين تهيأت لديهم أدوات الزيف الثقافي فضلاً عن السلطة، وبهذا يشتبك الشاعر مع البنية الثقافية العميقة للتمايز الطبقي بعدها خطاباً يؤسس للتفاخر ويتغاضى عن الفاقة لتصبح موائد الأغنياء رمز للقوة والتمايز أكثر مما هي وعاء للطعام. ليعكس ذلك التفاوت الطبقي بعد الطعام رمزاً للمكانة الاجتماعية وأداة للحكم.

ومما لاشك فيه أن ذلك الخطاب قد أسهم في كشف البنية الطبقية، فقد وظف النقد السياسي– السلطة الحاكمة– في بنية شعرية تداخل فيها الطبقي مع السياسي، إذ جعلت من الرغيف والجوع

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

أداةً لكشف الظلم والحيف المسلط على الرعية من قبل السلطة الحاكمة، وهذا ما أفصح عنه أبو الشمقمق في نصه الذي خاطب فيه الحاكم العباسي أبي جعفر المنصور، يقول:

يا أيها الملك الذي جمع الجلالة والوقارة
..
إني رأيتك في المنا م وعدتني منك الزيارة
فغدوت نحوك قاصداً وعليك تصديق العبارة
..
إنَّ العيال تركتهم بالمصر خبزهم العصارة
وشرابهم بول الحما ر مزاجه بول الحمارة
ضجوا فقلت تصبروا فالنجحُ يقرنُ بالصبارة(الصمد، 52-53:1995)

فالنصّ ينفتح على أفق سياسي / طبقي معقد يجعل من غياب الرغيف مركزاً خطابياً ومعياراً للظلم ليعري به الواقع السياسي المتصدع والمختل المبتعد عن العدالة، فقد اتخذ الشاعر من معاناة المجتمع وسيلة افصاح عن استبداد الطبقة الحاكمة وظلمها لرعيتها، فضلاً عن بخلها وشحها وعدم انصافها في توزيع موارد الدولة، فهو نقداً مبطناً لانعدام العدالة. ويتكرر ذلك المشهد في نص أبي دلامة، يقول:

رأيتك أطعمتني في المنام قواصر من تمرك البارحة
فأم العيال وصبيانها إلى الباب أعينهم طامحة(الاصفهاني،645:2009/1)

يفصح النص عن جوع متجذر في مخيال المجتمع العباسي ليقدم مشهداً يمتزج فيه الجوع الواقعي كـ(عبثية للواقع) بالحلم الوهمي كـ (تعويض رمزي للعطاء)، ليتحول الطعام إلى وعد واهم في اللاوعي لا يمكن تحقيقه إلا عبر بوابة الحلم فيعكس التدني في مستوى الامنيات ليصل أقل الأشياء (الرغيف) أمنية عظمى، فالتمر طعام سهل المنال، وإذا بالشاعر يحلم في الحصول عليه ليكشف أزمة وجود بين من يملك الطعام ومن يحلم به، كما يعكس سقوط قيم العطاء إذ أنَّ الكرم والعدالة في التوزيع لا تتجسد في الواقع وإنَّما في الأحلام.

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

ويتضح مما سبق أن الشعراء في العصر العباسي قد وظفوا الطعام كرمز ثقافي يعكس بنيةً طبقيةً واجتماعيةً متموضعة في سياقات عدة (مدح، هجاء، تمثيل طبقي، انتماء، اقصاء..) خرجت بالطعام من "المعنى الظاهري" إلى الكشف عن البنية الثقافية والذهنية التي تشكل منها المجتمع العباسي، فضلاً عن التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وبذلك يتنوع حضور خطاب الطعام في الشعر العباسي ما بين البذخ، واللذة، والسخرية، والزهد، والجود، مما يجعل من هذا الخطاب أداة غنية لفهم رؤية الشاعر لعالمه، وعلاقته بمجتمعه، وموقفه من السلطة.

2 .المبحث الثاني: تحولات الرغيف بين المتعة والجوع في الوعي الثقافي

شهد العصر العباسي تطوراً ثقافياً وفنياً، انعكس بشكل لافت في الأدب عامة والشعر خاصة، لتتبلور لنا ثنائيات متنوعة، منها (الترف / الحرمان)، (الجود / الشح)، (البذخ / الذل) التي تمظهرت فيه – الشعر – لا لمجرد كونها مادة حسية بل لأنَّها خطاباً رمزياً مكثفاً للتمثلات الثقافية والطبقية والمجتمعية، فضلاً عن أنَّها مرآة لتحولات المجتمع العباسي من الثراء الفاحش والرخاء الحضاري إلى الفقر والقحط، بسبب الاضطرابات الاقتصادية فضلاً عن السياسية التي شهدها العصر لا سيما في أواخره.(ضيف، 52–53: 1426هـ)

تلك التبدلات الاقتصادية ارتبطت بالرغيف ارتباطاً جدلياً انعكس في مخيلة الشعراء ليصب في فضاء نصوصهم الشعرية، فنجده في مظاهر الترف والبذخ في المطاعم والمشارب والمجالس – الطبقة العليا – تارةً، وصور الحرمان والجوع والتسول والبؤس – الطبقة الدنيا – تارةً أخرى.(ضيف، 52–53: 1426هـ ،جميل، 64: 1994) . وبذلك فإنَ الرغيف / المائدة تحول من "مركز الامتياز" ورمز الاحتفاء إلى "مرآة الحرمان" ورمز للشكوى، ليجد الشاعر فيه –الرغيف/الطعام– وسيلة للإفصاح عن مواقف متعددة فعندما يذكر الجوع لا يحصره بالألم الشخصي حسب وإنّماَ يبتعد إلى أكثر من ذلك فهو يظهر بذلك نظام اجتماعي متصدع، فضلا عن مظاهر الحرمان، وأعراف الكرم، وعلاقات السلطة(عبد السلام، 211: 2005) فجاء هذا المبحث ساعياً إلى تفكيك دلالات الرغيف في الشعر العباسي واستجلاء ما تحمله من جدلية المتعة والجوع في المخيال الجمعي باتكائه على المنهج الثقافي، ليكشف عن تلك التحولات في صورة الرغيف، بعدها تمثيلاً رمزياً لتبدلات القيم والمعاني المرتبطة بالطعام في ذلك العصر، فالرغيف لم يكن مجرد مادة غذائية، بل علامة ثقافية تعبر عن البنية الاجتماعية وتفاوت الطبقات وتبدل منظومة القيم بين الرفاه والحرمان.

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

2.1. أولا: الرفاهية والترف:

تميَّزَ العصر العباسي بانفتاح حضاري وثراء اقتصادي اتاح فرصاً غير مسبوقة من الترف والرفاه، فقد مكّن الطبقات الحاكمة والوسطى من التنعّم بملذات الحياة، لتظهر آثاره بشكل واضح وجلي في الحياة اليومية فتجسد في اللباس والمآدب (اقامة ولائم وموائد الخلافة) التي ضاهت كل شيء في التنوع والغنى، فضلاً عن فن العمارة(ضيف،52–53:1426هـ) ، وقد تسرب هذا الواقع المادي إلى المدونة الشعرية ليتحول إلى بناءٍ خطابيّ وتمثيل لغوي يتغنى بلذائذ الطعام فوصف الشعراء تلك الولائم والأطعمة وصفاً حسيًّا دقيقاً، يكشفُ عن ذائقةٍ متطورةٍ، ومصداق ذلك قول ابن الرومي:

يا رب جرّيّ شواءٍ مررت به ... كأنَّه فدرُ الفالوذ مشوي
لا فلس فيه ولا شوكٌ ينغّصه ... كما تكون لشبوطٍ وبُنّيّ
يفور في الوجه فوراً من حرارته ... طوبى لحلقٍ بذاك الحرّ مكويّ
نعمَ الطعام لأعمى جائعٍ ضرِمٍ ... مُعلمٍ عالمٍ بالشعرِ نحويّ(السقطي، 104/3: 1998)

ينغمس النص في مشهد صوري مترف ومتداخل بين المتعة الحسية والرغبة الثقافية، وبين الجسدي والخيالي، فهو يبني عالم خيالي، لأن ما ذكره من أطعمة لا سيما (الفالوذ) وهي حلوى فارسية لا تقدم إلا في البلاطات العباسية فهي تدل على ثقافة الترف التي تميزت بها تلك الأماكن فطعام النخبة صاف من العيوب بينما طعام العامة الفقراء يعاب بالشوك أو القشور فجودة الطعام تعكس الهوية الطبقية.

ويتضح أن حضور المائدة هو حضور للسلطة بسطوتها ونخبويتها إذ نجد التداخل واضح بين الرغيف والطبقة الحاكمة المتسلطة وهذا ما يفصح عنه نص آخر لأبي نواس، يقول فيه:

رأيت الفضلَ مُكتَئِبا ... يناغي الخبزَ والسمكا(الحديثي، 456: 2010)

ينغمس النص في قعر المفارقة الاجتماعية فحضور (الفضل) وهو شخص ذو سلطة ومكانة اجتماعية في هذا الوصف يعبر عن الخذلان الداخلي بسبب الافتقار إلى المأكل البسيط فضلاً عن

التفكيك الرمزي لأعمدة التمايز الطبقي ، فهو نقد سياسي مقنع لترف السلطة العباسية الحاكمة فالمآدب أصبحت وسيلة لإظهار السلطة مقابل طبقات المجتمع التي تئن تحت وطأة الجوع والحرمان

لعل هذا التداخل المادي الثقافي السلطوي جعل الرغيف والموائد المترفة ترتبط بالبنية الطبقية اجتماعية أو سياسية، ليصدح الشعر ويفيض بملامح البذخ من جوف القصور بعد اعادة انتاجها لتصدح نصوصه بذلك.

2.2. ثانياً: تمثلات الجوع والحرمان / غياب الطعام / الشكوى

لم يكن الجوع محض حالة بيولوجية وإنَّما تمثيل لحالة مجتمعية ارتبطت بانهيار منظومة العدل واتساع الفجوة بين الطبقات، لنجد صورة مغايرة لخطاب الترف العباسي، وظهور خطاب العوز والحاجة، الفقر والحرمان الذي اكتسب وبعداً ثقافياً احتجاجيا، فاغلب الشعراء لم يكونوا من أهل الترف والقصور، فقد ذاقوا ألم الجوع ومرارته فنطق شعرهم بتلك الروح الزاهدة التي لا تنفصل عن مجتمعها، فالامتناع عن الرغيف ليس رفاهيةً وترفاً وإنَّما نسقا احتجاجا ثقافياً على الفقر، فجعلوا الطعام كمقياسٍ للعدل، واظهارٍ للطبقية، وهذا ما نلمسه في قول أبي العتاهية:

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا فكل ما في الارض لا يغنيكا(بيروت،495: 1968)

يحول النص (القوت) إلى مفهوم ثقافي يتجاوز الماديات إلى الاخلاقيات، فقد ربط الطعام بالموت ليؤكد أن مظاهر الترف والبذخ فضلاً عن الوفرة وهم زائل أمام حقيقة الفناء، وبذلك يضع مائدة الزهد إزاء موائد الخلفاء، ليكشف الخلل في البنية المجتمعية ويحول الجوع إلى تمظهر وجودي ثقافي يكشف الفحش الأخلاقي للطبقة الحاكمة لاسيما في توزيع الثروة، فالشاعر هنا لا يتحدث من منظور فردي بقدر ما يشير إلى انتمائه لطبقة منعدمة تنظر في بذخ السلطة وترفها مشروعا قائما على ممتلكات العامة التي تخص الرعية. فميزان العدالة مختل والطعام غائب فنقش الجوع اثاره واستحضر الحرمان شكواه في نصوص الشعر لتصبح رمزا للكرامة ومقياساً لانهيار القيم، التي صدحت بصوت المعوزين وعبرت عن وعي مجتمعي مبكر. لتصبح احتجاجا ثقافيا مكتوما يختبئ خلف تراكيبه النصية.

2.3. ثالثاً: ازدواجية الدلالة (التخمة والجوع):

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

ظهر في خطاب العصر العباسي لاسيما الطعام ظاهرة خطابية مزدوجة ألا وهي الامتلاء ظاهراً (التخمة) والخواء باطناً (الجوع)، التي عكست هشاشة التوازن الطبقي بين السلطة الحاكمة والطبقة العامة، وافصحت عن العلاقة المتصدعة بينهما، فجاءت نصوص الشعراء مشحونة بدلالات الشبع والخذلان التي كشفت التنازع الطبقي الذي تقمصه الرغيف بتلك المداليل، وهذا ما عبر عنه ابن الرومي في قوله:

نظرتُ إلى الرغيف فردّ روحي ... لدى حجرٍ يُرضُّ ولا يُرَضُّ
فتًى ما زالَ ينهضُ للمخازي ... وليس له إلى العلياء نَهضُ
سجيتُهُ طِوال الدهر قبضٌ ... وكلُّ سجيَّةٍ بسطٌ وقبضُ
ولؤم الناس طولٌ دون عَرضٍ ... ولكن لؤمُهُ طُولٌ وعَرض
تعادى كُل شيء منه لؤماً ... فبعضٌ منه يهربُ منه بعض
يخفِّظُه المناذل وهو نَصْبٌ ... وينصِبهُ الفواعلُ وهو خفضُ
أراني عنده يوماً رغيفاً ... يقاتلُ عنه جيشٌ لا يُفضُّ
فقبّلتُ الرَّغيف وقلتُ خيراً ... وشُكرُ المحسنِ المأمول فرض
فلما أن فغرتُ فمي عليه ... لأكدمهُ وفي الأحشاء مضّ
إذا رجلٌ يقول وليس يكنى ... ألا ترضى تُقَبل أو تعضُّ
فقلت وما سبيل الخبز فيكم ... فقال سبيله بيعٌ وقرض(السقطي، 2/168: 1998)

فالنصّ يبرهن أنَّ الطعام ليس محض متعة جسدية وإنَّما يحمل بعدا اجتماعياً أخلاقياً يبتعد عن التفاخر ويدعو إلى التراحم فهو بذلك يمارس وظيفة ثقافية تسير نحو تشكيل الهوية الاخلاقية في ذلك العصر المضطرب اجتماعياً والمتشضي في بنيته حيث التعايش التناقضي في فضائه (النعيم الفردي مع البؤس المجتمعي والتخمة مع الجوع)، فحين يعلن الطبق عن امتلائه (الترف) فالشاعر لا ينغمس بلذته بقدر ما يستحضر الفقراء والمعوزين فضلاً عن المحرومين، أي يعمل وفق آلية صامتة تجابه الترف الذي برزه كأداة لإظهار الظلم. فخاطب الشاعر عبر نصه تلك الأزمة الاجتماعية/ السياسية عبر احتجاج أدبي مبطن مبتعداً بذلك عن الصدام المباشر مع السلطة الحاكمة، ليظهر عمق التناقض الطبقي، فهو ينفتح على ازدواجية التخمة والجوع من خلال (الرغيف) فقد جمع بين أبسط أنواع الأكل وبين معاناة الفقر وآلامه، فضلا عن عكس صورة الصراع والذل في علاقة العامة مع الطعام،

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتمَاعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

مقابل الترف الغذائي الذي تعيشه السلطة الحاكمة التي لا تظهر بشكل جلي في النص، ويتضح ذلك في قول ابن سكرة:

الجوع يطرد بالرغيف اليابس فعلام تكثُر حسرتي ووساوسي

والموت أنصف حين عدل قسمةً بين الخليفة والفقير البائس(قميحة، 152: 2015)

فالمشهد الثقافي الذي يظهره النص يكشف عن وعيٍ ثقافيٍ / شعريٍ يحول الرغيف إلى أداة ايحائية تتصف بالعمق الدلالي تجعل منه جزءًا من المنظومة القيمية السائدة وتحوله إلى رسالة أخلاقية تفيض بالرحمة والتكافل لمواجهة قسوة الحياة – الجوع الحقيقي – عبر تجريد الموت من دلالاته السلبية ونهايته المخيفة إلى معيار للعدالة مقابل فشل المنظومة السياسية والدينية والاجتماعية في تحقيق العدالة الدنيوية بتقديمه (الموت) كقاسم مشترك يساوي بين الناس، ليجعل منه خطاباً احتجاجياً يتحدى الأنساق المحتفية بالترف في القصور العباسية فالنص يتحول إلى مرآة عاكسة لبنى ثقافية تُفكك البنية المستبدة والترف المصطنع، وتبرز الجوع لا كحالة مأساوية وإنما حالة حضارية، ليغدو الرغيف العلامة الفارقة والمؤشر على العدل المجتمعي، فضلاً عن ارتباطه بثنائية (الوفرة / الحرمان)، ليصبح الأداة الناقلة للمعاني من الامتلاء إلى الجوع ومن التعظيم والتمجيد إلى النقد. فهو يختزل معاناة انسانية وجودية تستدعي النكبة بعده وثيقة ثقافية احتجاجية طبقية تدين موائد الترف في القصور، فضلاً عن تحمل السلطة تبعات ما فقده المجتمع من أبسط مقومات المعيشة ألا وهو الرغيف، الذي انتج (المجاعة والحرمان). ليتحول من قوت إلى مقياس رمزي للكرامة والخلل المجتمعي والاقتصادي ينعكس في النصوص الشعري ليعيد تشكلات المفهوم الطعامي بعده نسقاً ثقافياً لا حاجةً فيزيولوجية فهو يشي بثقافة بعيدة المدى تحمل تجاهلاً وخذلاناً يكشف صمتاً اجتماعياً متواطئاً تجاه الفقر والعوز المزمن، فدفع الجوع بالرغيف اليابس جعل من الفقراء غارقين في وساوس الخوف، فقد لا يمكن الحصول عليه، وهذا يدل على هشاشة منظومة الحكم الاقتصادية والاجتماعية.

الخاتمة

بعد استعراض دلالات خطاب الطعام في الشعر العباسي، يتبين لنا أن هذا الموضوع قد اكتسب أبعادًا متعددة في الشعر العباسي، سواء من حيث تصويره للواقع الاجتماعي أو استخدامه الرمزي في

التعبير عن مواقف شعرية مختلفة. ومن خلال تحليل المفردات المتعلقة بالطعام، نجد أن الشعراء العباسيين قد تجاوزوا مجرد وصف الطعام ليخوضوا في فضاءات فكرية وأخلاقية ودلالية معقدة، تهدف إلى التعبير عن موقف اجتماعي أو سياسي أو حتى فلسفي.

لقد شكل الطعام في الشعر العباسي تجسيدًا لمواقف الحياة المتباينة: من الزهد والتقشف في بعض الحالات، إلى الترف والنعيم في حالات أخرى. وهذه الازدواجية في التناول أكسبت خطاب الطعام سمة التعددية، حيث أصبح الطعام ليس مجرد عنصر مادي في حياة الفرد، بل رمزًا لعدة معانٍ روحية واجتماعية.

كما كانت مفردات الطعام في الشعر العباسي تُستخدم لتحديد العلاقة بين الفرد والمجتمع، بحيث يرتبط الطعام بالقيم الأخلاقية والطبقية. قد يكون الطعام رمزًا للزهد، أو علامة على فساد المجتمع، أو تعبيرًا عن الترف الطبقي في مجتمع العباسيين، ويبرز هذا التباين في مختلف النصوص التي تم تحليلها.

يقدّم هذا البحث اسهاماً نظرياً في حقل النقد الثقافي من خلال مقاربة خطاب الطعام في الشعر العباسي بعده نسقاً دالاً على البنية الثقافية والاجتماعية للعصر، لا مجرد موضوع شعري عابر. فقد كشف التحليل عن أن الطعام في الشعر العباسي يتحول إلى نصٍ موازٍ للسلطة والثقافة، يفصح عن منظومة القيم التي تنظم العلاقة بين المركز والهامش، وبين الامتياز والحرمان. ومن ثمَّ يقترح البحث ما يمكن بتسميته((نظرية الرغيف الثقافي))، التي ترى في حضور الطعام، ولا سيما الرغيف، تمثيلاً رمزياً لجدلية البقاء والهيمنة، والمتعة والعوز، في الوعي الجمعي العباسي.

وبذلك يسهم هذا البحث في توسيع أفق النقد الثقافي العربي، عبر ادخال خطاب الطعام إلى دائرة القراءة بوصفه حقلاً معرفياً يكشف عن انساق السلطة والقيمة في الادب العباسي، ويضيء العلاقة بين النصّ والثقافة من زاوية لم تتناول بالدرس الكافي من قبل.

المصادر

[1] أبو العتاهية. (1968). ديوان أبي العتاهية. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.

[2] أبو نواس، برواية الصولي. (2010). تحقيق د. بهجت عبد الغفور الحديثي. هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.

[3] ابن الرومي. (1998). ديوان ابن الرومي (تحقيق أحمد السقطي). دار المعارف، القاهرة.

[4] ابن سكرة. (2015). ديوان ابن سكرة (جمع وتحقيق ودراسة: د. محمد سالمان). منشورات

الجمل، بيروت.
[5] ابن قتيبة الدينوري. (1998). فضل العرب والتنبيه على علومها (تحقيق وليد محمود خالص). المجمع الثقافي، الإمارات.
[6] الراغب الأصفهاني. (2009). محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[7] السقطي، أحمد (محقق). (1998). ديوان ابن الرومي. دار المعارف، القاهرة.
[8] العوادي، سعيد. (2023). الطعام والكلام: حفريات بلاغية ثقافية في التراث العربي. إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.
[9] القاسمي، علي. (2011). الطعام في الثقافة العربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
[10] بورديو، بيار. (2007). التمييز: نقد الحكم الاجتماعي على الذوق (ترجمة نظير جاهل). المنظمة العربية للترجمة، بيروت.
[11] بركات، نوال. (2005). الرمز في الشعر العباسي. دار الطليعة، بيروت.
[12] جماعة باحثين. (2024). الطعام أفقاً للقراءة: أعمال مهداة إلى البلاغي سعيد العوادي. دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمّان.
[13] جميل، نينا. (1994). الطعام في الثقافة العربية. رياض الريس للكتب والنشر.
[14] ضيف، شوقي. (1426هـ). تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول. سليمان زاده، إيران.
[15] مزين، إيناس. (2019). الطعام أفقًا للقراءة. دار التنوير، بيروت.
[16] محمد عبد السلام. (2010). الطعام والشراب في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي الأول. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
[17] واضح محمد الصمد. (1995). ديوان أبي الشمقمق. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
[18] قميحة، مفيد محمد (محقق). (1983). يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. دار الكتب العلمية، بيروت.